

من كتب الشرق والغرب

كتاب « مؤسس الإسماعيلية فيما يقولون » (١)

ولعل أكثر العلماء المحدثين اهتماماً بدراسة الإسماعيلية هو الأستاذ المستشرق الروسي و. إيفانوف؛ فقد نشر أكثر من سبعة وعشرين بحثاً عن طائفة الإسماعيلية تناول فيها تاريخها وعقائدها. وهذا الكتاب الذي نحن بصددده هو آخر ما أنتجه، حاول فيه أن يكشف القناع عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون الذي ينسب إليه بعض العلماء تأسيس الدعوة الإسماعيلية، وأنه جد الخلفاء الفاطميين.

تتبع المؤلف تاريخ الرواية القائلة بأن القداح هو رأس أسرة خلفاء الفاطميين، فوجد أن أول القائمين بها هو أبو عبد الله محمد بن رزام الطائي في كتاب له ألفه في القرن الرابع للهجرة. وقد فقد هذا الكتاب، ولكن ابن النديم صاحب الفهرست نقل عنه. ويظهر أن ابن النديم لم يكن وثقاً تمام الثقة بما حكاه صاحبه؛ ولذلك قال: «وثناً أبرأ من المهدية في الصدق عنه والكذب فيه». ثم جاء أخو محسن أبو الحسين محمد بن الشريف الدمشقي المتوفى سنة ٣٧٥ هـ فوضع كتاباً في الرد على الإسماعيلية ذهب فيه إلى أن الفاطميين أدعياء، وتوالت بعد ذلك كتب المؤرخين وأصحاب الفرق، ونحا أكثرهم إلى أن الفاطميين ليسوا من نسل النبي صلى الله عليه وسلم. وقد لاحظ إيفانوف أن هؤلاء

منذ ظهر عبيد الله المهدى على مسرح السياسة ببلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ. وأسس الدولة التي عرفت في التاريخ باسم الدولة الفاطمية، والناس مختلفون في نسبه، وأكثروا من الحديث عن ذلك، ووضعوا الكتب حول نسبه، بل صدرت نشرات رسمية من قبل العباسيين وعليها خطوط العلماء والفقهاء والقباء في معنى أن هؤلاء الذين يحكمون باسم الفاطميين لا يمتون إلى فاطمة الزهراء بصله، وأنهم أدعياء وأن نسبهم إلى عبد الله بن ميمون القداح الديصاني الملحد، وبجانب هؤلاء الذين طعنوا في نسب الفاطميين نجد الدعوة الفاطمية الإسماعيلية تنتشر في جميع أنحاء البلاد الإسلامية ويعتقها عدد كبير من العلماء، بل أخذها بعض ملوك البوهيين وأمراء اليمن والعرب ديناً لهم واعتقدوا اعتقاداً راسخاً في أذهانهم أن الفاطميين من نسل فاطمة البتول.

ورث المحدثون هذا الخلاف بين المنكرين والمؤيدين للنسب الفاطميين، فترى كتباً لا تزال تصدر في نسب الفاطميين، واهتم به المستشرقون خاصة بسبب ما أذيع ونشر أخيراً عن عقائد الإسماعيلية التي كانت سرّاً لا يقربه إلا خاصة من اعتنق دعوتهم، فأصبحت الآن هذه العقائد في كتب متداولة يطلع عليها من يشاء متى شاء.

(١) *The Alleged Founder of Isiamism* للاستاذ و. إيفانوف. نشره الجمعية الإسلامية ببسبى سنة ١٩٤٦ وطبعه Thacker & Co.

المؤرخين اختلفوا في حديثهم عن نسب الفاطميين وعن مؤسس دعوتهم، فكان المتأخر منهم يضيف شيئاً جديداً من عنده لم يذكره المتقدمون، حتى كملت قصة القداح واتخذت هذا المظهر الذي نراه عند المتأخرين . ولعل التعصب المذهبي كان من أهم أسباب اختلاق هذه الروايات المختلفة عن نسب الفاطميين وعقائدهم؛ حتى إن رجال الشيعة الاثني عشرية قاوموا الدعوة الاسماعيلية قبل ظهور عبيد الله المهدي . فقد ألف فارس بن حاتم بن ماهويه القزويني المتوفى سنة ٢١٩ هـ كتاباً في الرد على الاسماعيلية، ووضع محمد بن ابراهيم بن جعفر الكاتب النعماني المتوفى سنة ٢٧١ هـ رداً آخر ، وكتب محمد بن موسى الكاتب المتوفى سنة ٢٨٣ هـ رداً ثالثاً، وهكذا قاوم الاثني عشرية الدعوة الاسماعيلية وهي لا تزال في مهدها . ولكن من الحق علينا أن نقول إن الاثني عشرية لم يعرضوا لمؤسس الدعوة أو لنسبه، إنما كانوا يعملون لاثبات الامامة لموسى الكاظم بعد أبيه جعفر الصادق ونفها عن اسماعيل بن جعفر، فكأنهم كانوا يعترفون أن مؤسس الدعوة الاسماعيلية وإمامها هو اسماعيل وأبناءؤه بعده .

وبالرغم من أن الفاطميين انتصروا سياسياً واسسوا لهم ملكاً واسع الأرجاء ونافسوا العباسيين منافسة كان لها خطرهما ، بل استطاع الفاطميون أن يمتلكوا بغداد نفسها سنة ٤٥٠ هـ ، بالرغم من ذلك كله فإن لفاطميين لم يصدروا وثيقة واحدة تدحض نشرات العباسيين في مسألة نسبهم . وقد علل ايقانوق ذلك بأن الفاطميين كانوا يعتقدون بالستر على الأئمة المستورين، ومن المحرم عندهم أن يذكروا أسماء هؤلاء المستورين . قد يكون هذا الرأي مقبولاً، وعقيدة الستر على الأئمة المستورين ليست من عقائد الفاطميين فحسب ، بل قال بها الاثني عشرية أيضاً حتى

عرض الأستاذ ايقانوق لتاريخ عبد الله ابن ميمون القداح وأبيه . واتجه إلى كتب الحديث وطبقات الحديثين يستعين بها ، فبحث في كتب الشيعة الاثني عشرية وكتب أهل السنة ، فوجد في هذه الكتب كلها ذكر لميمون القداح الكوفي الحزوي . وتجمع هذه الكتب على أنه كان تقياً ورعاً متقشفاً ، وكذلك قالت عن ابنه عبد الله بن ميمون ، وأن كل الأحاديث التي تروى عن طريقهما إما عن الصلاة او عن المأكل والمشرب والملبس ، وأنهما كانا على صلة وثيقة بالامامين

وثنيا ، وبين الخلط الذي وقع فيه القدماء بأن توهموا أن الديسانية وثنية أو مجوسية ؛ إذ أن الديسانية هي إحدى فرق الفنوسطية المسيحية ، نشأت في الرها على يد ابن ديسان المتوفى سنة ٢٢٢ م . وانتشرت في الجزيرة وفارس وتركستان وخراسان واستمرت مدة طويلة حتى عصر ابن النديم ؛ فهي فرقة من الفرق المسيحية وليست كمجوسية مزدك أو وثنية العرب . وقد كان لهذه الفرقة أثرها في الفرق الاسلامية التي ظهرت في القرنين الثاني والثالث للهجرة . ولكن ليس هناك ما يثبت صلة ميمون القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون بالديسانية ، وإذا فرض أنهما كانا ديسانيين أي مسيحيين قبل إسلامهما فلم يذكر رجال المحدثين شيئاً عن انحرافهما عن الاسلام أو عدم إخلاصهما للامامين الباقر والصادق . أضف إلى ذلك أننا نجد في كتب الاسماعيلية الاولى رداً على بعض عقائد الديسانية ، وأن بارديسان قد زج به مع زعماء الزنادقة .

وفي فصل ممتع من فصول هذا الكتاب عرض الأستاذ إيقانوف للفرق الشيعة التي ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ ، وهي الفرق التي ذهب القدماء إلى أن للقداح صلة بها . وقد يكون هذا اللون من البحث من أشق البحوث العلمية وأدقها ؛ فكتب الفرق الاسلامية قد خلطت بين الفرق ولم تستطع تمييز كل فرقة تمييزاً دقيقاً من ناحية التاريخ والعقائد ؛ فهناك بعض فرق تتشابه في العقائد وتختلف في الاسماء ، وهناك فرق أخرى ذكرت أسماءها دون عقائدها ، وبعض مؤرخي الفرق نسبوا إلى فرق ما هي برتبة منه . ويخيل إلى أن مؤرخي الفرق لعبوا دوراً كبيراً في وضع عقائد بعض الفرق وتناقلها دون الرجوع إلى أسانيد تاريخية . ثم إن التشيع في القرن الثالث

الباقر والصادق ، حتى لقب كل منها بمولى الامام . على أن كتب أهل السنة ترفض الأحاديث التي تروى عن طريق ميمون القداح لأنه ضعيف الحديث ، ولكن لم يذكر مصدر واحد من هذه المصادر أن ميمونا أو ولده كان ملحقاً منكراً للأديان .

وناقش إيقانوف معنى القداح ؛ فالقدماء يذهبون إلى أنه قادح الميرون ، فغافهم وذهب إلى أنه لقب بهذا اللقب لأنه كان موكلاً بالأواني الحجرية الكبيرة التي كانت لمواييه الباقر والصادق . وليس عندنا من النصوص التاريخية ما يثبت هذا الرأي أو ينفيه ، وسيظل فرض إيقانوف قائماً إلى أن تظهر حقيقته . وكذلك بحث المؤلف قصة كنية القداح ، فقد كناه القدماء بأبي شاكر ، فذهب إلى أن هذه الكنية لم تذكر في كتب المحدثين ولم يذكرها ابن رزام أول من قاله إن عبد الله ابن ميمون هو مؤسس الاسماعيلية ، ورجح أن أول من أسند هذه الكنية للقداح هو ابن شداد الحميري المتوفى سنة ٥٠٩ هـ على مارواه ابن الأثير في حوادث سنة ٢٩٦ هـ ورد إيقانوف على ابن شداد بأن الموالي لم يكن لهم أن يتكفوا في القرنين الأول والثاني من الهجرة . ولكن كتب الطبقات على اختلافها وكتب التراجم لا تؤيد رأي إيقانوف ؛ فقد حفظت لنا هذه الكتب كنى عدد كبير من الموالي ؛ فالشاعر بشار بن برد وكان معاصراً للقداح كان يكنى بأبي معاذ ، والشاعر الحسن بن هانئ كنى بأبي نواس ، وصاحب دعوة العباسيين كنى بأبي مسلم واسمه عبد الرحمن بن مسلم ، والبراءوردي المحدث كان يكنى بأبي محمد . وقد يطول بي الأمر لو أنيت على كنى جميع الموالي الذين كانوا في القرنين الأول والثاني من الهجرة . وناقش إيقانوف قول أعداء الفاطميين بأن عبد الله بن ميمون القداح كان ديسانية

الطريف أن الأستاذ المستشرق دي جويه ناقش نص ابن رزام أيضاً و انتهى إلى رفضه . وقد وقف الأستاذ ايحانوف عند فرقة المباركية والميمونية وقفة طويلة ، ورجح أن ميمونا الذي تنسب إليه الميمونية هو نفسه عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، مستنداً على نص عثر عليه في كتاب عيون الأخبار للداعي ادريس عماد الدين بن الحسن المتوفى سنة ٨٧٢ هـ وهي رسالة أرسلها المزعى لدين الله الفاطمي إلى داعي دعائه باقليم السند ، ينكر فيها المزعى أنه من نسل ميمون القداح ، ويثبت أنه من نسل عبد الله بن محمد ابن اسماعيل الذي كان يسمى نفسه أحياناً على سبيل التقية « ميمون النقية » . أما المباركية فقد رجح أنها نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق الذي كان يلقب بالمبارك ، مستنداً على نص في كتاب « سلم النجاة » الذي ينسب لآبى يعقوب السجزي (وكان في النصف الثاني من القرن الثالث) : « إن المبارك عليه السلام سادس أئمة دور محمد ، والامام السادس هو اسماعيل بن جعفر » . هذا ما رجحه الأستاذ ايحانوف عن الميمونية والمباركية . ولكنني أقف بدوري أسائل الأستاذ ايحانوف كيف وثق برواية الداعي إدريس وهو متأخر (في القرن التاسع للهجرة) على حين لم تذكر هذه الرواية في أي كتاب من كتب الدعوة ، وكيف لم تذكر في كتب القاضى النعمان وكان جليس المزعى وصفيه وقاضيه ، مع أن القاضى النعمان روى في كتابه « المجالس والسيارات » في الجزء الخامس ما نصه : « وقد وصل المزعى خطاب من أحد الدعاة ، وكان فيما رأيت في هذا الكتاب أن زعم له فيه أن الامامة انتقلت عن بعض الأئمة إلى ميمون القداح وإلى فلان وإلى فلان لقوم ذكرهم ، ثم جعل (المزعى) يتعجب من هذا القول » إلى أن قال : « فكيف ينبغي أن

للهجرة كان في محنة شديدة لم يعرف الشيعة لها مثيلاً في تاريخهم ، فأبناء الصادق كانوا بين مشرد ومسجون ، وكل من اتهم بالشيعة كان يحمل إلى بغداد أو سر من رأى ، ولم يبق للشيعة مركز يجتمعون فيه ويتبادلون الدرس والرأى فتفرقوا ، واتخذوا التقية على أنفسهم ، واتصلوا بأهل السنة ودرسوا مذهبهم ، بحيث أصبح من الصعب أن نفرق بين الشيعي والسني ولا سيما في رواية الحديث ، بل لم يستطع الشيعة أن يضعوا كتباً خاصة بهم تعرف بها خصائص مذهبهم . ثم جاءت القرون المتعاقبة ، فكتب المتعصبون ضد الشيعة حسب أهوائهم ، ومن هنا كان البحث عن الفرق الاسلامية التي ظهرت في القرنين الثاني والثالث من الهجرة من أشق البحوث وأدقها . ومع ذلك فقد أدلى الأستاذ ايحانوف دلوه في هذا البحث ، فناقش ما قبل عن فرقة الميمونية ولا سيما قول ابن رزام « إن ميمونا تنسب إليه الفرقة المعروفة بالميمونيا التي أظهرت اتباع أبى الخطاب محمد ابن أبى زينب الذي دعا إلى ألوهية على بن أبى طالب » إلى أن قال : « وكان ميمون وابنه ديسانين ، وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة » . ناقش ايحانوف هذا النص و انتهى إلى أن هذه القصة موضوعة ، وناقش كل ما ذكره أصحاب كتب الفرق عن الميمونية وسخر بقول ابن رزام فقال : « من الجائز أن مؤرخاً كان قد سمع بوجود فرقة إلحادية عرفت بالميمونية وعرفت أخيراً بالخطائية فبحث عن شخص اسمه ميمون ممن كانوا يتصلون بالامام الصادق لبسند إليه رياسة هذه الفرقة فلم يجد سوى ميمون القداح للثقي الورع ، وأن هذا الشخص الذي اخترع قصة نسب الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح لابد أن يجعله زنديقاً ملحداً فقال إنه من نسل ديسان وأنه ادعى النبوة » . ومن

« سلمان من أهل البيت » تكريماً لسلمان ، وأن كل ما جاء على هذا النحو فهو من قبيل التكريم بحسب ، بخلاف ماذهب إليه ماسينيون بأن الفاطميين كانوا يقولون بالنبوة الروحية والدينية . فلعل الأستاذ إيقانوف يعود إلى قراءة ما جاء في المجلس السابع عشر من المائة الأولى من المجالس المؤيدية وفيه حديث طويل عن « الولادة النفسانية » و « الأبوة الدينية » وتأويل قول الله تعالى « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » فقد ذهب المؤيد في الدين إلى أن النبي (ص) أبو المؤمنين نفسانياً وديناً . كما نجد في رسائل إخوان الصفا عدة نصوص في مواضع متفرقة عن الأبوة الروحية ، وأن المعلم أبو التلميذ نفسانياً إلى غير ذلك من الآراء والبراهين التي تؤيد رأى الأستاذ لويس ماسينيون . ولعل الأستاذ إيقانوف يغير هذا الرأى بعد أن يعيد قراءة النصوص التي أشرت إليها .

وليس لي بعد أن قرأت هذا الكتاب القيم إلا أن أشكر الأستاذ إيقانوف وأهنته تهنئة صادقة على هذا المجهود الذى بذله للكشف عن سر ميمون القداح وابنة عبد الله بن ميمون ، وأشكره خاصة هديته القيمة التي كانت متعة لي عدة أيام .

محمد طاهر حسين

مدرس بكلية الآداب

ينقطع القول فيه بأن قد صار إلى بعيدين كالذين ذكرهم هذا من ميمون القداح وغيره . وقد ذكرت أن بعض علماء الدعوة قد عرضوا لذكر الأئمة المستورين ، ولكنى لم أجد في كتبهم أن عبد الله بن محمد بن اسماعيل قد لقب بميمون النقية بل لقبه جميعهم بعبد الله الرضى ، وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن خصوم الفاطميين قالوا إن عبد الله ابن ميمون القداح ادعى أنه عبد الله بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر . فكان الأستاذ إيقانوف يوافق خصوم الفاطميين في هذه الدعوى دون أن يشعر . هذه كلها مسائل تحتاج إلى جهود أخرى نرجو أن يبذلها الأستاذ إيقانوف للكشف عنها وتحقيقها وهو قدير على ذلك .

وقارن الأستاذ إيقانوف بين عقائد الخطائية وعقائد الفاطميين بعد أن بحث عن الخطائية بحثاً تاريخياً ، فكان موقفاً كل التوفيق في آرائه وبحته .

أما الفصل الذى كتبه عن « النبوة الروحية » والذى رد فيه على ما ذكره الأستاذ العلامة لويس ماسينيون في مقاله عن سلمان الفارسي ، فقد حاول الأستاذ إيقانوف أن يجعل من قول النبي عن سلمان